كتاب: المغازي الأولى ومؤلفوها، للمستشرق الألماني يوسف هوروفتس في ميزان النقد العلمي

د. حافظ القليب
عضو هيئة التدريس، مدرسة العلوم الانسانية، الأكاديمية الليبية مصراتة

استلمت الورقة بتاريخ 2023/10/5
وقبلت بتاريخ 2023/11/24
ونشرت بتاريخ 2024/02/24

الكلمات المفتاحية:
تذكر هنا أهم الكلمات المفتاحية (يوسف هوروفتس، النقد العلمي، المغازي)

الملخص

البحث قراءة نقدية في كتاب المغازي الأولى ومؤلفوها للمستشرق الألماني يوسف هوروفتس ببيان المميزات والمآخذ التي اشتمل عليها الكتاب، والذي حملني على هذه الدراسة طرافة الموضوع فكرة وتناولا، إلا أنه دس السم في كثير من نظراته، وحاد عن جادة الحقيقة والإنصاف، وركب كل وسيلة للوصول للمعنى الذي يريده من خلال روايات لا تثبت، أو كتب ليست معتبرة في ميدان البحث، أو دعاوى لا تستند إلى حقيقة... ومن هما كانت هذه الدراسة محاكمة نقدية بإبداء ما للكتاب وما عليه... تقييما وتقويما... تصويبا وتخطئة... والله الموفق.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه واقتفى سنته إلى يوم الدين، وبعد:

فقد كنتُ وقفت على كتاب: المغازي الأولى ومؤلفوها، للمستشرق الألماني يوسف هوروفتس، ترجمة حسين نصار، تقديم: مصطفى السقا، الطبعة الأولى، 1369ه،- 1949م، وأصله منشور في مجلة الثقافة الإسلامية، في حيدر أباد باللغة الإنجليزية، في أعداد سنتي 1927، 1928م، وهو يتناول جانبًا من جوانب السنة، وهي السيرة، ومنها على الخصوص: المغازي، ولفت انتباهي فيه طرافة موضوعه، فهو يُعرّف بالعلماء الذين خدموا المغازي، وجهودهم في ذلك، وكيف تطور نقل السنن من رواية شفهية تجمع كل فروع السّنة من عقائد، وأحكام، وسير، وفضائل، وتفسير، وترغيب وترهيب إلى أن صار كلّ فرعٍ منها فنًّا مستقلاً، له مصنفاته وقواعده ومناهجه، شأن كل العلوم.

ونلحظ الاستقلالية أو الإفراد من خلال معرفة المقصود بالمغازي والسير ومفهومها، وميادينها، وتطور هذا المفهوم ودلالته، ومصادر استقائه وتحصيله، وسيرة الرواة لهذا العلم، والمصنفين فيه، بذكر ما صنفوه في ذلك من النشأة حتى التكامل في طور الجمع والنقد الأوليّ المعتمد على الأصالة والتلقي والنقد، ولذلك اقتصر مؤلف الكتاب على القرنين الأولين، ووجه عنايته لمن كتب وألف، ولم يتعرض لمن ليس له من ذلك إلا مجرد الرواية، وإن تجاوز فبمقدار ما يبين تطور العلم، كما اقتصر في عرضه على من ألف في خصوص هذا الفن، لا من ألف في عموم الحركة التاريخية، ولو أتى خلالها بما يتصل بالموضوع.

والمؤلف يعرض في كل ذلك خصائص تآليف المصنفين في المغازي ومناهجهم فيها، وتوالي جهودهم من خلال كتبهم أو بقيتها مما نقلته الكتب عنهم، فبذلك يحصل التصور العام للعلم، وتدرك زواياه ومراميه، وتستبان مصادره ورجاله الأصلاء، وتعرف طرقهم في الجمع والبناء.

ومع هذه المميزات التي حملها الكتاب، التي جعلت منه ميدانًا قمينًا بالتناول والدراسة، إلا أنه دسّ السمّ في كثير من نظراته كعادة المستشرقين، فتقوى بذلك غرض دراسته وتقييمه، للحكم عليه إيجابًا وسلبًا، وبيان مواضع السداد والجنوح، وسأتناول الكتاب من خلال الآتي:

المسألة الأولى: المقصود بالمغازي، وفيها: أولاً: المعنى اللغوي، ثانيا: المعنى الاصطلاحي وعلاقته بالسيرة، ثالثًا: مصادر السيرة، رابعا: من أي فروع المعرفة هي؟

المسألة الثانية: عرض محتوياته بإيجاز.

المسألة الثانية: مميزات الكتاب.

المسألة الرابعة: المآخذ على الكتاب.

ثم ختمت بتقييم موجز للكتاب عمومًا، ولمصادره في الكتاب.

وذكرت بعض المصادر التي رجعت إليها.

والله أسأل الإعانة والتوفيق والمدد، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

المسألة الأولى: المقصود بمصطلح المغازي:

جرني الكلام عليها موضوع الكتاب المدروس المتعلق بها، ليكون القارئ على بصيرة بموضوع الدراسة، وسأتناول ذلك من خلال:

أولاً: المعنى اللغوي:

قال ابن منظور: غزا الشيء غزوًا: أراده وطلبه، والغزو: السير إلى قتال العدو وانتهابه، والمغازي: مناقب الغزاة، والمغزى والمغزاة والمغازي مواضع الغزو، وقد تكون الغزو نفسه؛ ومنه الحديث: كان إذا استقبل مغزًى، وتكون المغازي: مناقبهم وغزواتهم(1)، وقال ابن حجر: "والمغازي جمع مغزى، يقال: غزا يغزو غزوا ومغزى، والأصل غزوا، والواحدة غزوة وغزاة، والميم زائدة، وعن ثعلب الغزوة المرة، والغزاة عمل سنة كاملة، وأصل الغزو القصد، ومغزى الكلام مقصده"(2).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي، وعلاقته بالسيرة:

لا شك أن المعنى الاصطلاحي لهذا العلم مستمدٌّ من المعنى اللغوي، مع ملاحظة تصرف الأئمة من واقع مصنفاتهم؛ لأنهم مقياس الاعتبار، وهو ما يمكن أن نسميه في اصطلاح العلوم: توسعة المعاني، فلسان العلوم أوسع... لأنه اصطلاح أهله، المعتبر والملتزم بينهم، وهم: ربما وسعوا المعنى اللغوي، وربما نقلوا معنى لغوي إلى آخر، حتى يصير حقيقة فيه عندهم... ومصطلح المغازي إذا أفرد عند أهل العلم له دلالتان: الأولى خاصة، ويقصد بها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه، وسراياه وبعوثه، وما يتعلق بها من تعاملٍ وأحوال، وإعدادٍ وخطط وتدابير وصلح ونتائج وبطولاتٍ ومناقب، ومشاهد وأحداث، ومغانم وأحكام، وبهذا الاعتبار هو خاصّ بالعهد المدني لأنه الواقع فيه المدافعة، وهذه أيضًا دلالة أخص من دلالة مصطلح الجهاد الذي يتناول أحكام الجهاد وآدابه وفضله، ولذلك نجد البخاري ترجم بكتاب الجهاد، ثم ترجم بكتاب المغازي في صحيحه، ويدل على ذلك أيضًا: ما خرجه الخطيب بسنده إلى علي بن الحسين أنه قال: "كنا نعلم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلم السورة من القرآن"(3)، وما خرج بسنده إلى إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال: "كان أبي يعملنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعدها علينا وسراياه، ويقول: هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوها"(4).

والثانية: عامة، تدرك من خلال الواقع والسياق، تنْظُم كلّ السيرة، وهو سجل حياة النبي صلى الله عليه وسلم في العهد المكيّ والمدني، مع إرهاصات نبوته، وما تبع وفاته من آثار وأحداث، وهذه الدلالة يتعاقب عليها مصطلح السيرة، ومصطلح المغازي، فالمغازي في مصطلح السيرة ضمني؛ لأن من أحداث السيرة المغازي، وعلى الإطلاق الثاني من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

أما إذا جمعا هكذا: السير والمغازي فقد تمايزا، وقد وُجدت مصنفات تحمل هذا المسمى، ككتاب السير والمغازي لابن إسحاق، الذي يعرف اختصارًا بمغازي ابن إسحاق، أو سيرة ابن إسحاق، وكالدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر، وغيرها كثير.

قال ابن حجر: "المراد بالمغازي هنا ما وقع من قصد النبي صلى الله عليه وسلم الكفار بنفسه، أو بجيش من قبله، وقصدهم أعم من أن يكون إلى بلادهم، أو إلى الأماكن التي حلوها حتى دخل مثل أحد والخندق"(5)، وهذا التعريف للمغازي تابع لترجمة البخاري: كتاب المغازي، حيث أراد به الغزوات والسرايا.

وقال الشيخ قاسم القونوي: "السير: جمع سيرة، وهي الحالة من السير؛ كالجلسة والركبة للجلوس والركوب، ثم نقلت إلى معنى الطريق والمذهب، ثم غلبت في لسان الشرع على أمور المغازي؛ لأن أول أمرنا السير إلى العدو، وأن المراد بها سير الإمام ومعاملاته مع الغزاة والأنصار، ومع العداة والكفار، وإنما سمي بها هذا الكتاب؛ لأنه بين فيه سير المسلمين في المعاملة مع الكافرين من أهل الحرب، ومع أهل العهد منهم من أهل الذمة والمستأمنين، ومع المرتدين... ومع أهل البغي..." (6).

ويقول الشيخ الطناحي:**"**المقصود بمصطلح السيرة النبوية: هو ما يتصل بسيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، من حيث الحديث عن نسبه الشريف، ومولده ونشأته، وبعثته، وصفاته، وتصرف أحواله إلى أن لقي ربه راضياً مرضياً بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وترك أمته على مثل المحجة البيضاء، فهذا هو الأصل في مصطلح السيرة النبوية، لكنه

(1) ينظر لسان العرب، 15/ 123، مادة: غزا.
(2) فتح الباري، 7/ 279.
(3) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/ 195.
(4) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/ 195.
(5) فتح الباري، 7/ 279.
(6) أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، صـ64.

قد استعمل أيضاً مضافاً إليه: حديث المغازي والحروب التي خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم، لإعلاء كلمة الله في الأرض، فصار هذان المصطلحان يتعاقبان على موضوع واحد، فكتاب ابن إسحاق يقال له: السيرة، ويقال له: المغازي، وقد جمع بعض المؤلفين المصطلحين في العنوان الذي اختاره لكتابه، كما ترى في كتب ابن عبد البر، وابن الجوزي، وابن سيد الناس، على أن هناك بعض الكتب التي تنصرف خالصة إلى السيرة النبوية بمعناها الأصلي الذي ذكرته، وذلك ما عرف بكتب دلائل النبوة، والشمائل، والخصائص"(1).

وقال القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري: "وقال الفقهاء: كتاب السير، وإنما سموا الكتاب بذلك؛ لأنه يجمع سير النبي صلى الله عليه وسلم، وطرقه عليه الصلاة والسلام في مغازيه وسير أصحابه، وما نقل عنه عليه السلام في ذلك"(2).

وقال مترجم كتاب المؤلفون الأوائل: حسين نصار في مقدمته: "لفظ المغازي يعني الغزوات، وهي الحروب التي اشترك فيها الرسول بالقتال، ولكن الاسم تدرج في الزمن فاتسع معناه وشمل تاريخ حياة النبي جميعها، وأرجح أنه في توسعه الأول شمل حياة النبي في المدينة وحدها، لأنها مدة الجهاد الحربي الذي ساير قيان الدولة الإسلامية، فهذه المدة من حياة الرسول مزدحمةٌ بهذه الحملات على قريش والقبائل العربية واليهود... ولذلك لا يبعد المرء كثيرًا إذا سماها مدة المغازي، ثم اتسع اللف حتى شمل حياة النبي بأكملها، فإنه إذا كانت المدة المدنية مدة الجهاد الحربي، فإن المدة المكية كانت مدة الجهاد السلمي في سبيل نشر الدعوة سرًّا ثم جهرا، وعلى هذه الصورة اتسع اللفظ فصار يعني سيرة النبي صلى الله عليه وسلم كلها، وبهذا المعنى يستعمله مؤلف الكتاب".

ثالثًا: مصادر السيرة النبوية:

يمكن أن نقسم مصادر السيرة إلى قسمين:

القسم الأول: المصادر الأصلية، وتتمثل في:

أ- القرآن الكريم.

ب-كتب الحديث النبوي: كالموطإ والصحيحين والسنن، والمعاجم، والمسانيد، ونحوها.

ج- كتب السيرة المختصة، كمغازي موسى بن عقبة، ومغازي ابن إسحاق ونحوها.

د-كتب الشمائل والدلائل، كالشمائل للإمام الترمذي، وكتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه لابن حيان الأصبهاني، وأعلام النبوة لابن أبي حاتم، ودلائل النبوة للبيهقي، والخصائص الكبرى للسيوطي.

القسم الثاني: مصادر تكميلية، وتتمثل في: كتب التراجم والرجال، والأنساب، والتاريخ، والطبقات، والأدب، وكتب الفقه، وغيرها مما يورد عرضاً حديثاً عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم(3).

رابعًا: من أي فروع العلوم هي؟

يتجاذب المغازي علمان: علم التاريخ، وعلم الحديث، وقد عَدّ علمَ المغازي من فروع علم الحديث، جماعةٌ، منهم:

الحاكمُ النيسابوري، فقد عد المغازي بالمعنى الخاص من أنواع علوم الحديث، حيث قال: "ذكر النوع الثامن والأربعين من علوم الحديث، هذا النوع من هذه العلوم معرفة مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثه وكتبه إلى ملوك المشركين، وما يصح من ذلك، وما يشذ، وما أبلى كل واحد من الصحابة في تلك الحروب بين يديه، ومن ثبت، ومن هرب، ومن جبن عن القتال، ومن كر، ومن تدين بنصرته صلى الله عليه وسلم، ومن نافق، وكيف قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم، ومن زاد، ومن نقص، وكيف جعل سلب القتيل بين الاثنين والثلاثة، وكيف أقام الحدود في الغلول، وهذه أنواع من العلوم التي لا يستغني عنها عالم"(4).

كذلك الخطيب البغدادي، قال: "كتب أحاديث المغازي: تتعلق بمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكام كثيرة، فيجب كتبها والحفظ لها"(5).

(1) الموجز في مراجع التراجم، محمود الطناحي، صـ 34. ط1، 1406.
(2) جامع العلوم في اصطلاح الفنون، 2/ 140.
(3) ينظر بحث مصادر السيرة النبوية، ضيف الله الزهراني.
(4) معرفة علوم الحديث، صـ238.
(5) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/ 195.

كذلك صاحب مفتاح السعادة ومصباح الزيادة طاش كبرى زاده، فقد أورد تقسيمه العلوم صديق خان القنوجي وقال: "وجعل من فروع الحديث: علم المواعظ، علم الأدعية، علم الآثار، علم الزهد والورع، علم صلاة الحاجات، علم المغازي"(1).

قلت: وجعلها من علوم الحديث لكون المغازي في أصل نشأتها قائمة على الرواية الشفهية حتى صارت علمًا قائمًا له مصنفاته وكتبه... يقول صديق خان القنوجي: "علم المغازي والسير، أي مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وهو من فروع علم التاريخ... ولكن لما كان ثبوتها بالأحاديث والآثار جعلناها من فروع علم الحديث، وفي هذا العلم مصنفات كثيرة أجلها وأفضلها تصنيف عبد الملك بن هشام ومغازي ابن إسحاق وغير ذلك ذكره في مدينة العلوم"(2).

وكتب السنة تتناول المصطلح باعتباره أحد أبواب الدين الثمانية المتمثلة في العقيدة، والأحكام، والتفسير، والسيرة، والمغازي، والمناقب والفضائل، والترغيب والترهيب، وأشراط الساعة، ولذلك سمى البخاري كتابه: الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، والجامع أي الذي يجمع مرويات كل أبواب الدين المحتاج إليها، وبيانها في قوله: أمور، وسنن، وأيام، ومن الأيام: المغازي.

المسألة الثانية: محتويات الكتاب:

المؤلف ابتدأ بذكر مقدمة يسيرة ذكر فيها المقصود بالمغازي، ونظرته إليها، واستمدادها ونشأتها، وعمله في الكتاب، حيث يقول: "في الأدب العربي ميادين ثلاثة ينبغي أن تعد مصادر لأقوال النبي وأفعاله، وهي كتب الحديث والسيرة والتفسير، والعنصر الرئيسي في كل واحدٍ من هذه الميادين هو الرواية المسندة التي ترد في كلٍّ منها بصورةٍ واحدة : صورة متن الحديث يتقدمه الإسناد... ومن الطبيعي ألا تحوي الكتب الممثلة لكل من الميادين الثلاثة مادة متحدة في كل منها، وإنما تختلف كثيرًا في اختياراتها من تلك المادة الواسعة باختلاف أشخاص مؤلفيها، وميولهم الخاصة من ناحية، ومقياس النقد الذي يصطنعونه للتحقق من صحة الروايات من ناحية أخرى... وقد شرع الناس في الجيل التالي للصحابة: جيل التابعين يجمعون أقوال النبي وأفعاله التي كانت شائعةً في عصرهم، وإذا كانت مادة أحاديث عددٍ من الصحابة المدونة في الصحائف والكتب مشكوكًا في صحتها وقيمتها، فإنه لا يوجد شكٌّ في أن مثل هذه الكتب كانت نادرةً في جيل التابعين الذين أخذوا معارفهم عن الصحابة، ووجد بين التابعين أناسٌ يُعتبرون علماء بالمغازي، وهي الحروب، وينبغي أن نقصر معنى هذا اللفظ على المعنى الخاص بأعمال النبي والصحابة الحربية، وإن كان يطلق في الغالب على سيرة النبي جميعها، وسنتكلم عن هؤلاء العلماء بالمغازي خاصة من التابعين، وعن مدوناتهم، ولكننا لن نقف عند هذا الحد وحده من نشاطهم، بل نجمع كذلك كل الأخبار الهامة التي نقف عليها مضافةً إليهم، وسنتناول في فصل آخر أو اثنين العلماء بالمغازي في الجيل التالي: جيل تابعي التابعين، وأخيرا نتناول السير الشاملة لحياة النبي، أعني سير ابن إسحاق ومعاصريه، وكذلك الواقدي وابن سعد"(3).

وابتدأ في الفصل الأول بترجمة أبان بن عثمان، ثم عروة بن الزبير، ثم شرحبيل بن سعد، ثم وهب بن منبه.

وجعل الفصل الثاني في ذكر ثلاثةٍ من شيوخ ابن إسحاق، وترجم لهم لعنايتهم الخاصة بالمغازي، وهم عبد الله بن أبي بكر بن محمد، وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن مسلم الزهري.

وجعل الفصل الثالث في تلاميذ الزهري، فترجم لموسى بن عقبة، ثم معمر بن راشد، ثم محمد بن إسحاق.

وجعل الفصل الرابع في ترجمة أبي معشر السندي، ثم محمد بن عمر الواقدي، وختم الكتاب بابن سعد وكتابه الطبقات.

وقد ألحق المترجِم بآخر الكتاب ضمائم تدليلاً وبيانًا لمناهج المذكورين في الكتاب، وعلل إلحاقه هذه الضمائم بقوله في المقدمة: "ويؤخذ على المؤلف قلة الاستشهاد بل عدمه تقريبًا، وقد استدركتُ هذا النقص بالضمائم التي جمعتُها في آخر الكتاب، إذ أتيتُ لكل مؤرخٍ مذكورٍ بشيءٍ من مقتطفاته المحفوظة في الكتب المتأخرة التي رجع إليها المؤلف".

المسألة الثالثة: مميزات الكتاب:

1- يعتبر الكتاب أول محاولة لذكر طائفةٍ من المؤلفين الأوائل في المغازي، وجمعهم في مصنفٍ يتناول ترجمتهم وما يتعلق بها من جميع الجوانب، ثم ما ألفوا وكتبوا في المغازي، فيمتاز كتابه بطرافة الموضوع وجدته وقوة النظر، قال مترجم الكتاب في مقدمته: "ويعرض الكتاب دراسةً فريدة لم يسبق إليها فيما أعلم، فهو يتناول طائفةً من المؤرخين المبكرين الذين وصفوا حياة الرسول، وكتبوا فيها المؤلفات، فيذكر ترجمةً وافيةً لهم، مبينًا مراكزهم الاجتماعية، وأعمالهم الرسمية، ويعني بنشأتهم العلمية، وكيف حصلوا على معارفهم وآرائهم العلمية، ثم يتناول ما ألفوا من كتب، ويقف عندها طويلاً، ملخصًا محتوياتها، واصفًا قيمتها الفنية، وأخيرا يصف ما كتبوا في المغازي بالمعنى الخاص أو العام، ومقدار ارتباطها بحياة النبي في مكة وفي المدينة، وارتباطها بالحياة الإسلامية عامة".

(1) أبجد العلوم، صـ51.
(2) أبجد العلوم، صـ520.
(3) ينظر صـ1 وما بعدها.

2- التزم بميدان دراسته في الغالب، فقصرها بحسب نظره واختياره على أوائل المصنفين في المغازي، فبدأ بأبان بن عثمان المتوفى عام 105 هـ، وختمه بمحمد بن سعد البصري المتوفى عام 230هـ.

3- حاول- وحالفه التوفيق في كثير من استنباطاته واختياراته- أن يصف محتويات التآليف التي يتناولها بقدر ما تسعفه المصادر الموجودة، إما بالمباشرة أو الاستدعاء عمن نقل عن المفقود، مبرزًا قيمتها، وطريقة مصنفيها، ومصادرهم، ومميزاتهم، محاولاً الاستنتاج والتحليل والنقد، منبهًا على بعض الأوهام، مفيدًا لكثير من الفوائد، فهو يصف الكتب بوصفٍ دقيق، فيذكر طريقته، وموارده، ورواته، وأشهر نسخه، وما بقي منها، ومطبوعاته، ونحو ذلك.

4- الجهد المبذول منه ظاهرٌ وواضح من خلال التمحيص والمناقشة والاستنباط، وجمع النتف والمقتطفات الباقية، فجمعها ونظمها بأسلوبٍ نقدي حاول به أن يُعطي صورةً واضحة عن كل كتاب.

5- ترجمته للمؤلفين في المغازي بتتبع الملامح العامة للنشأة والتكوين والتأثير والتأثر يفيد في معرفة الاستيقاء والنبوغ والصلة بين الواقع والأثر، فهو لا يقف عند مجرد الترجمة، بل يتجاوز ذلك إلى ذكر كل ما يذكر مضافًا إليهم ليسلط الضوء على الشخصية المدروسة، فنجده مثلا يقف في ترجمته لوهب بن منبه عند عنايته بتاريخ أهل الكتاب، وما قيل في ذلك، محققا بعض المسائل المتصلة بذلك(1).

وخلال هذا التجاوز كثيرًا ما يأتي بفوائد تفيد في بيان سبب نشاط التأليف في هذا الفن وشيوعه، ومن ذلك ذكره لعناية الخلفاء الأمويين بهذا العلم، وأمرهم بعض أعلامه بتدريسه والتأليف فيه، وهذا يوقفنا على سبب رواج هذا العلم ونهوضه(2)، كما يستطرد لفوائد أخرى، كتفريقه بين الشخصيات المتشابهة، كتفريقه بين أبان ابن الخليفة عثمان، وأبان بن عثمان البجلي(3)، وكأسباب انتشار علم المغازي في المدينة(4).

6- ركز على تتبع الجذور الأولى للتأليف، فذكر أن كتابات أبان بن عثمان وعروة بن الزبير تمثل أقدم المدونات عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فأوقفنا بذلك على تطور التأليف في هذا الفن.

7- له نظرةٌ مُنصفةٌ لكثير من القضايا التي يتناولها، من ذلك يقول في ترجمة عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري: ولا نقبل أنه شوه تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم إرضاءً للأمويين، كما نرفض أن عمر الثاني رغب في ذلك(5)، وقال- لما ذكر قصة سعي الزهري إلى الوليد- ويبدو أن القصاص فَخَّموا هذه الحادثة(6).

8- أطال النفس فيمن وصلت إلينا كتبهم، وعقد بينها مقارنة، فقد عقد مقارنة بين ابن إسحاق وابن سعد في منهجهما، وموارهما، وصبغتهما في التأليف(7).

9- تفاوتت تراجمه في الكثرة والقلة، بحسب ما يتوفر له من معلومات، فقد أطال في ترجمة ابن إسحاق والواقدي وابن سعد، وله في ذلك وجهة نظره باعتبار أنهم أوائل المصنفين على الحقيقة فيما وصلنا، وما لم يطل فيه قد جلى جوانب الترجمة، وأسقط عليها الإيضاءات.

10- أدخل زبدة رسالة قيمة للمستشرق فيك، وعلق عليها بالإضافات والنقد، كما نص على ذلك المترجم.

المسألة الرابعة: بعض المآخذ عليه في كتابه:

1- عنوانه فيه إيهامٌ، وخالف دلالته في التناول، أما إيهامه فإطلاقه لفظ المغازي على مختاره من الدلالة العامة لحياة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته، فلو عبر بالسيرة لكان أولى، ثم في تناوله كان منطلقه المؤلِّفين، مع أن عنوانه كان يقتضي الانطلاق من المغازي الأولى، ثم مؤلفوها...

2- لم يبين لنا المنهج الذي اعتمده في دراسته، حتى نحاكمه عليه إيجابًا أو سلبًا.

3- لم يقدم لكتابه بمقدمة توضح لنا معالم الدراسة ومراميها وبواعثها وأهدافها.

4- صبَّ كل نظره على المؤلفين، ولم يأت لنا ولو في المقدمة بملامح الرواية الشفهية من عند الصحابة ومن بعدهم باعتبار أنها أساس هذا العلم، فنجد بدايته من عند أبان بن عثمان المتوفى سنة 105ه، وهذا ضروري في نظري في

(1) ينظر ترجمته صـ27 وما بعدها.
(2) ينظر ترجمته لعاصم بن عمر، وأمر عمر بن عبد العزيز له بتدريس السيرة بدمشق.
(3) ينظر صـ5.
(4) ينظر صـ6، 8.
(5) ينظر صـ48.
(6) ينظر صـ55.
(7) ينظر صـ130.

تكامل صورة بناء العلم، ولا بكيفية تطور التدوين في السيرة من خلال الرواية الشفهية، ثم التصنيف المزجي مع أبواب الدين الأخرى، ثم إفراد السيرة عن غيرها من الأبواب، وفي الإفراد مرت المصنفات بمراحل أيضًا...

وقد مرت المغازي والسيرة عمومًا بمراحل حتى صارت علمًا مستقلاً له كتبه وميادينه يمكن بيانها في التالي:

أ- مرحلة الرواية الشفهية: وتتمثل في الصحابة الذين عايشوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاحظوا جميع أموره الخاصة والعامة من صفاتٍ، وبلاغ، وتعاملٍ، وحربٍ وسلم... ورووا كل ذلك مسندًا ممزوجًا مشتملاً على جميع سجل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم متعدد الجوانب لثراء حياة صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، وتعدد جوانب الاقتداء والأسوة في شخصه الكريم، لأنه ما من جانبٍ إلا وهو مشتمل على ما ينبغي تحقيق القدوة والمتابعة فيه، وهذه المرحلة تعتمد على ركيزتين أساسيتين: الأول: الرواية الشفهية المسندة، دون الاعتماد على التدوين، الثاني: تنوع محتوياتها لتغطي جميع حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن هنا لم يقع في هذه المرحلة فصل المغازي عن السيرة، أو الأحكام، أو عن غيرها من فروع المعرفة، ولذلك نجد المصنفين في الحديث تجمع مصنفاتهم كل هذه الجوانب المأثورة مسندة على وفق نظرة أصحابها في طريقة ترتيبها، ومنهج تناولها وإيرادها لموادها، ومن هنا سمى البخاري كتابه بالجامع، أي المشتمل على كل أمور الدين.

وهذه المرحلة هي الأساس في نشوء العلم الخاص، وتمتد حتى تشمل بعض التابعين، وهذا الملحظ في هذه المرحلة ليس غريبًا، بل هو شأن كل العلوم حيث تتطور من النشأة حتى الإكتمال والنضج، وهي سنة الله التي لا تتخلف.

وقد كان لاعتماد الإسناد أثره في حفظ المأثور من التهويل والمبالغة، والكذب والتحريف والخطإ والوهم، كما أنه ميزانٌ دقيق في القبول والرد، فقام على جنبات هذه المرويات منهج متكاملٌ في النقد يصون كل متعلقات الجناب المحمدي.

المرحلة الثانية: مرحلة التدوين: وهذه المرحلة ممتدة من عصر التابعين وهلم جرا، وهي تمر بمرحلتين: التدوين المختلط، والتدوين الخاص، أما التدوين الخاص فبدايته كما يرى ابن كثير بعروة بن الزبير، حيث قال: "وهو أول من صنف في المغازي، وكان من فقهاء المدينة المعدودين"[1].

وهذا التدوين ليس مقتصرًا على الكتب المختصة بالسيرة، بل جمعت دواوين السنة المبكرة أبوابًا وفصولاً من سيرته صلى الله عليه وسلم ومغازيه، فموطأ مالك ذكر طرفا من ذلك، ثم كذلك الصحيحان بتوسع أيضا بذكر الخصائص والفضائل والجهاد والمغازي والسير وغيرها، وكذلك كتب الحديث الأخرى.

والتدوين الخاص كانت مصنفاته الأولى معتمدة على الإسناد والرواية الشفهية، ثم تنوسي الإسناد أو أغفل وركزت المصنفات في دورها التالي إلى تجميع الصور، وتقريب المنتشر، ثم نشأت كتب أخرى تبحث عن فقه السيرة وعبرها ودروسها، وفي كل هذا الخضم قلّت الكتب الناقدة المتثبتة.

5- لم يحاول أن يفسر الأسباب الدافعة للمترجمين عنده للعناية بهذا الفن، ثم الكتابة فيه، وهنا كان الخلل كبيرًا، فنظر المصنف منبثق من كون ذلك تراثًا وتاريخا، والحقيقة ماثلة في تحقيق الأسوة والقدوة التي تستدعي الاعتناء والاحتفاء.

6- خلطه بين النظرة التاريخية للرواة والنقدية، فلم يميز بينهما، فأتى خلال التراجم باستطرادات لا طائل من ورائها، وفي بعضها مغمزٌ فيمن يتناولهم، ولا ينتقد ذلك، بل يستوحى استرواحه لذلك من خلال العرض، كقوله: لم تقتصر عناية علماء المدينة على العلوم الدينية وحدها، بل عنوا أعظم عناية بالموسيقى والشعر، وضرب على ذلك مثلاً بعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأتى برهنة على ذلك أيضا بقصة حبٍّ عاشها، وقال فيها شعرًا دون أن يعقب بشيء، بل عمم هذه النظرة على التابعين[2].

كما أورد أن عروة بن الزبير كان سيء الظن بحسان بن ثابت، وأن له شعرًا تهكميًّا على محبوبة أخيه مصعب عائشة بنت طلحة، دون دليل أو مناقشة، إلا النقل الموافق من كتبٍ لا يعتمد عليها[3]، كما ذكر أن الزهري متزلفٌ للأمويين، وأنه روى حديث زيارة المساجد الثلاثة تزلفًا لعبد الملك، ومضى مؤكدًا لذلك، موافقًا للمؤرخ الشيعي اليعقوبي، وكذلك ذكره لسبب خلاف هشام بن عروة مع محمد ابن إسحاق بسبب دخوله على امرأته من غير علمه[4].

(1) البداية والنهاية، ج9/ 119.
(2) ينظر صـ6، 7.
(3) ينظر صـ24.
(4) ينظر صـ29.

7- الاعتماد بكثرةٍ على مصادر غير أصيلةٍ لا يُعتمد على مثلها في البحوث الرصينة، ككتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، والمعارف لابن قتيبة، وهذا ظاهرٌ جدًّا في الكتاب، كقوله غمزًا على أبان بن عثمان: "ويوصف أبان بن عثمان بأنه رجلٌ يميل للدعابة والفكاهة، ويورد كتاب الأغاني مثالاً لهذا الميل"[1].

وكقوله[2]: "ولم تقصر عناية أهل المدينة على العلوم الدينية وحدها، بل عنوا أعظم عناية بالموسيقى..."، وضرب مثالاً بعبيد الله بن بن عبد الله بن عتبة حفيد عتبة بن مسعود صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان ممن شهد أحدا... وليثبت ذلك قال: "وقد خصص أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني فصلاً لعبيد الله هذا، وأورد فيه طائفة من شعره... وهو معدود من فقهاء المدينة السبعة..."، ثم ذكر قصة حُبّه هذلية وشعره فيها معرضا فيها بذكر فقهاء المدينة، ثم ذكر مثل ذلك عن سعيد بن المسيب!

وهذا عجيبٌ جدا في مقام البحث العلمي، "ومن أخطر العيوب المنهجية في البحث العلمي أن يتوصل الباحث إلى نتائج محددة عامة تكون مبنية على معلومات مستقاة من مصادر غير متخصصة في موضوع بحثه"[3].

قلت: وأشد منه جعل هذه النتائج مقدمات لنتائج أخرى، فيترتب الخطأ على الخطإ، كما تقدم النقل هنا، فقد اعتمد على كتاب الأغاني في إثبات بعض الخلال لأحد فقهاء المدينة مما يتنزه عنه كل ذي خلق، ثم أثبت من خلال القصص المنقولة في الأغاني: أن أهل المدينة اعتنوا بالأغاني والشعر، والأغاني كتاب غير مختص، ولا يمكن لمنصف أن يثبت من خلاله حقيقة أو نتيجة، ولكن الفكرة المسبقة والتوجه والمذهب لا بد أن يصبغ صاحبه، وقل من يسلم من ذلك.

8- تمحله الشديد في جعل بعض شخصياته من أصحاب التأليف دون دليل يؤيد ذلك، مبالغة في الاحتمال، وتوسيعا للمجال، كجعله عروة بن الزبير من أصحاب التأليف في السيرة، والعجب أنه أقر بذلك، حيث قال: "وبالرغم من أننا لا نجد أي مرجع قديم أن عروة ألف كتابًا في المغازي، فإننا واثقون أنه جمع وأخرج مجموعة أحاديث عن أهم الحوادث في حياة النبي، بل يتضح من الفقرات التي وصلت إلينا أن عروة بنى أجوبته المدونة على الأحاديث التي جمعها بنفسه، لأنه وإن كان لا يصرح باسم رواته في تلك الأجوبة عامة، فإنه يخرج على تلك القاعدة في خبره عن هجرة النبي حين يذكر أنها مبنية على ما أخذه عن عائشة..." [4]، فعلى أي شيء بنى يقينه إلا محض التخرص؟!

وكقوله: إن عبد الملك بن محمد قد ألف كتاب المغازي، ومن المحتمل أن هذا الكتاب الذي لم يبق له أثرٌ كان يتألف من المجموعة التي أخذها عن عمه[5]، ولهذا الاحتمال ترجم لعمه عبد الله بن أبي بكر بن حزم.

9- لا يدلل على كثير من منقولاته، بل يطلقها مرسلة من غير دليل، في حين أنها بحاجة إلى ذلك، قال في ترجمة شرحبيل بن سعد لم يكن أحد أعلم بالمغازي والبدريين منه، لكنه بسبب فقره واحتياجه أسقطوا مغازيه وعلمه، فلم يصدقوه بسبب فقره، لأنهم يخافون أنه إذا سأل أحدًا فلم يعطه، أن يقول: لم يشهد أبوك بدرًا، أو أن يجعل من لا سابقة له سابقة [6].

وهذا فيه تسفيه لمنهج المحدثين، وأنهم يأخذون بالظنة، في حين يُثبت ابن عدي في الكامل أن غالب ما يرويه وليس هو بالمكثر منكر[7].

10- لَيُّ أعناق النصوص لتتمشى مع آرائه وأفكاره ونتائجه، ومن أمثلة ذلك أنه لما ذكر قصة الزهري مع عبد الملك أتى فيها بمغمزٍ شديد، وأراد أن يثبت تزلف الزهري لعبد الملك برواية حديث شد الرحال، وذلك لما صرف عبد الملك الناس عن مكة، قال: والظاهر أن هذا كان لما تغلب عبد الله ابن الزبير على مكة، ثم قال: وصدق اليعقوبي في ذلك[8].

11- مجانبته للواقع في بعض القضايا، كقوله: لم يأت ابن سعد في كتابه بملاحظات شخصية قط[9]، وهذا فيه إجحاف واضح يعلمه كل مطالع للطبقات، وكقوله: إن سيرة النبي ليس لها علاقة بطبقات ابن سعد، وإنما رواها لتلامذته، فضمها

(1) ينظر ص9.
(2) ينظر صـ6.
(3) العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة النبوية د. خالد الدريس، صـ22.
(4) ينظر صـ22.
(5) ينظر صـ41.
(6) ينظر صـ26.
(7) ينظر صـ2.
(8) ينظر ترجمته صـ54.
(9) ينظر صـ130.

التلامذة إلى الطبقات، ولم يقصد ابن سعد السيرة[1]، وقد صرح ابن سعد بأنه قصد ذلك في مقدمة كتابه، وهذا مما لم يأت عليه المؤلف بدليل! ومن المعلوم أن ابن سعد قسم كتابه إلى قسمين: الأول في السيرة، والثاني: خصه بتراجم الصحابة والتابعين، وكعده لشرحبيل بن سعد هو المدون لقوائم بأسماء المهاجرين إلى المدينة، ومن اشترك في بدر وأحد، وقد تعقبه المترجم في ذلك بما أغنى عن إعادته[2].

وقال في ترجمة وهب بن منبه: "ولكن لم يقبل الرواة على الأخذ عنه إلا في النادر"[3]، والرجل من رجال البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، وعد في تهذيب الكمال كثرةً من الرواة عنه[4].

12- لم يميز بين أصحاب الروايات والمدونات، فبعض الشخصيات التي تناولها ليسوا من المؤلفين، وإنما هم رواة، فقد ترجم لأبان بن عثمان الخليفة، وليس له مصنف في المغازي، وإن كان من رواتها ووعاتها، وهذه مخالفة لعنوان بحثه الذي هو شرط التناول، لكنه اشتط أحيانا فجعل الروايات بمحض التحكم دون دليلٍ مدونات، فنتج عن ذلك خروج على شرطه، ودخول من ليس من المؤلفين فيهم.

13- فات المؤلف ذكر مؤلفين ومصنفات صنفت في شرط كتابه، ككتاب السيرة لسليمان بن طرخان المتوفى عام 143هـ، ومؤلف عبد الملك بن محمد القاضي في المغازي، وخليفة بن خياط المتوفى عام 240 هـ، وعبد الملك بن هشام الحميري المتوفى عام 218 هـ، فهو وإن كان مهذبًا لسيرة ابن إسحاق إلا أنه محّص ونقد، واستدرك بإضافة ما فات ابن إسحاق، وغيرهم[5].

14- انتهج منهج التشكيك في بعض الأحاديث، والحقائق، دون مناقشة أو حجة علمية يستند إليها، وفتح باب الاحتمال دون بينة للمقال، كقوله: "

15- أثر الفكرة المسبقة ظاهرة في كتابته، فلذلك ذكر كثيرا من القضايا التي تحمل في طياتها طعنا ما، كنظرته للمغازي على أنها أدبٌ عربي، بل كتب الحديث والتفسير كذلك، والعجب من المترجم لم يتعقبه[6].

16- قطع النصوص عن سياقها، والاستشهاد بها مبتورة مفرقة الأجزاء، تعميةً ونصرةً للأفكار،

16- كما يؤخذ عليه قلة الاستشهاد على من يسوق النصوص من كتبهم أو ما تبقى منها، وهذا ما جعل المترجم يضيف ضمائم للكتاب، حيث يقول المترجم في مقدمته: "ويؤخذ على المؤلف قلة الاستشهاد، بل عدمه تقريبًا، وقد استدركت هذا النقص بالضمائم التي جمعتها في آخر الكتاب؛ إذ أتيتُ لكل مؤرّخٍ مذكور بشيءٍ من مقتطفاته المحفوظة في الكتب المتأخرة التي رجع إليها المؤلف"[7].

(1) ينظر صـ125.
(2) ينظر صـ26.
(3) ينظر صـ27.
(4) ينظر صـ140/31.
(5) ينظر بحث: أعلام السيرة النبوية في القرن الثاني للهجرة، فاروق بن محمود بن حسن حمادة.
(6) ينظر فاتحة كتابه.
(7) ينظر الورقة س.

الخاتمة

الملاحظات على الكتاب لا تنقص من قيمته، فهو دراسة جيدة، امتازت بالجدة، وأضاءت جوانب كثيرة، وحاولت الجمع والاستقصاء، والتحليل بعمق النظرة، وإن كانت قد وقعت منه هَنات وزلات، ولم يستطع أن يتخلص من ثقافته المسبقة في بعض الأحيان النابعة من تعصب المستشرقين وعدم حياديتهم...

إن للمستشرقين عمومًا- ومنهم هوروفتس الذي هو أحد أنماط الاستشراق الذي يوصف بالاعتدال- يعانون من أخطاء منهجية بحثية توقعهم مهما حاولوا ادعاء التسلح بالواقعية والحقيقة العلمية في أخطاء جسيمة، منها من خلال واقع هذه الدراسة: المبالغة في الاحتمال والافتراض في النتائج، والمبالغة في الشك في تفنيد ما لا يرضاه، والاعتماد على مصادر غير أصيلةٍ في ميزان العلم والبحث، والتي تأتي بالكلام على عواهله، ككتاب الأغاني، والشعر والشعراء، ومعجم البلدان، ونحو ذلك، والاعتماد على الأقوال الضعيفة الغريبة، ثم عدم التجرد للحقيقة من حيث هي من سابق الانتماء والاختيار والنظرة، وفي ذلك يقول آتيين دينييه: "يستحيل أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة".

ومن باب الانصاف المؤلف رجع إلى مصادر كثيرة أصيلة وجاسها، واستنبط منها ما يضيء الصورة، ويحقق الهدف.

من يطالع كتب المستشرقين حول علوم وقضايا المعرفة الإسلامية لا بدّ أن يكون حذرًا مما يدسونه في ثنايا الكلام من طعونٍ وسمومٍ، كما لا يمنعه هذا الحذر من النصفة والعدل، فميزان العلم صادق، لا حيدة فيه، ولا مجاملة، ولا مجانبة، ولا تطفيف، بل كل ينزل منزلته، لكن مثل هذه الكتب الإفادة منها لغير رصين العلم محفوف بالخطر والضرر.

والمجتمع العلمي اليوم مطالبٌ بدراسة آثار المستشرقين-وهي كثيرة جدا- وتقييمها، وبيان ما لها وما عليها، قيامًا بواجب البلاغ، ودفعًا لعادية وغائلة هؤلاء التي تلبس لباس العلم والحيادية والبحث عن الحقيقة، وتغلف السموم بما يجعلها تبدو بهية المنظر، شهية المذاق، وفي جنباتها الموت الزعاق.

المصادر والمراجع:

أبجد العلوم، أبو الطيب محمد صديق القِنَّوجي، دار ابن حزم، ط1، 2002م.

أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، قاسم بن عبد الله القونوي، تحقيق: يحيى حسن مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.

البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1408، 1988م.

الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر أحمد بن علي، الخطيب البغدادي، تحقيق: د.محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض.

دستور العلماء، أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، تعريب: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م.

السيرة النبوية الصحيحة: أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الخامسة.1413هـ/1993م.

فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر، أبو الفضل العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.

لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة.

مصادر السيرة النبوية، ضيف الله الزهراني.

معرفة علوم الحديث، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن البيع، الحاكم النيسابوري، تحقيق: السيد معظم حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1977م.

الموجز في مراجع التراجم، محمود الطناحي، ط1، 1406.